مقالات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

الاستوغرافية المغربية حول الدولة العثمانية نماذج وقضايا

د. محمد العواد
أستاذ التعليم العالي مساعد
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة ابن زهر – المملكة المغربية

مُلَخّص

أسهمت الكتابات التاريخية العربية في معرفتنا بالتاريخ العثماني، خصوصا تلك التي قام بها باحثون متخصصون في الدراسات العثمانية. كما لعبت هذه الكتابات، دورا بارزا في الوقوف على مختلف التحولات التي عرفها العالمين الإسلامي والأوربي. وفي هذا الإطار، يندرج الإنتاج الاستوغرافي المغربي حول الدولة العثمانية، والذي انصب في البداية حول دراسة تاريخ العلاقات المغربية العثمانية، بالاعتماد على الأرشيف العثماني، إضافة إلى الدراسات الأجنبية الجادة. وانتقل اهتمام الباحثين المغاربة في مرحلة أخرى، إلى دراسة الدولة العثمانية المركزية. كما ركز ثلة من الباحثين على عقد مقارنات لفهم أعمق لبعض التحولات التاريخية بالمغرب، فركزوا على مواضيع من قبيل الإصلاح والجيش والعلاقة مع أوربا وأزمة السلطة، واستحضر فيها أصحابها البعد العثماني الذي لا شك سيساهم في إغنائها وفتح مجالات أرحب في وجهها. فقد قام هؤلاء بمساع كبيرة، للنظر في التاريخ العثماني بطريقة أكثر موضوعية، ولإعادة تقييم الإسهامات العثمانية في المجتمع العربي وثقافته. واستطاعت هذه الدراسات، أن تقدم خلاصات مهمة حول الدولة العثمانية، وتعيد قراءة التاريخ المغاربي العثماني، باتزان وانفتاح وحرص منهجي ومتانة علمية. يسعى هذا المقال إلى دراسة وتحليل نماذج من الدراسات الأكاديمية التي اهتمت بالدولة العثمانية، وذلك ما بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر الميلادي. مع التركيز على أهم القضايا التي تناولتها هذه الاستوغرافية، في محاولة لبحث النظرة الجديدة لموضوع العلاقات العثمانية المغربية، والوقوف عند بعض مستجدات البحث العلمي المتعلق بالدولة العثمانية، اعتمادًا على كتابات وأبحاث المؤرخين والدارسين المغاربة الذين اشتغلوا على الأرشيف العثماني وانفتحوا على الدراسات الأجنبية.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	٢٨	أكتوبر	٢٠١٩
تاريخ قبـول النشـر:	٠٩	يناير	٢٠٢٠

كلمات مفتاحية:

الاستوغرافية؛ الدولة العثمانية؛ التاريخ العثماني؛ الباب العالي؛ الأرشيف؛ الدراسات الأجنبية

معرّف الوثيقة الرقمي:

DOI 10.21608/KAN.2020.149836

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

محمد العواد، "الاستوغرافية المغربية حول الدولة العثمانية: نماذج وقضايا".- دورية كان التاريخية.- السنة الثالثة عشرة- العدد السابع والأربعون؛ مارس ٢٠٢٠. ص ١٠٥ – ١١٣.

Official website: http://www.kanhistorique.org
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

Corresponding author: m.elouad@uiz.ac.ma
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Inquiries: info@kanhistorique.org

Open Access This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

نُشرت هذه الدراسة في دَّورية كَان التَّاريخية للأغراض العلمية والبحثية فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

مُقدِّمَةٌ

يسعى هذا المقال، إلى دراسة وتحليل نماذج من الدراسات الأكاديمية التي اهتمت بالدولة العثمانية، وذلك ما بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر الميلادي. مع التركيز على أهم القضايا التي تناولتها هذه الاستوغرافية، في محاولة لبحث النظرة الجديدة لموضوع العلاقات العثمانية المغربية، اعتمادا على كتابات وأبحاث المؤرخين، والدارسين المغاربة الذين اشتغلوا على الأرشيف العثماني، وانفتحوا على الدراسات الأجنبية، والتي استطاعت أن تقدم تصورات مهمة حول الدولة العثمانية، وتعيد قراءة التاريخ المغاربي العثماني برؤية موضوعية. يندرج الإنتاج الاستوغرافي المغربي، ضمن الكتابات التاريخية العربية التي تناولت تاريخ الدولة العثمانية، والتي ساهمت في سبر أغوار التاريخ العثماني من جهة، وتتبع علاقات المركز بالأطراف من جهة أخرى. فما هي نماذج وقضايا هذه الكتابات المغربية؟ وما الأشواط التي قطعتها؟ وما هي مناهل هذا الإنتاج الاستوغرافي؟

أولاً: نماذج وقضايا الاستوغرافية الأكاديمية المغربية حول الدولة العثمانية

لم يهتم المغاربة بتسجيل وقائع من التاريخ العثماني، إلا أولئك السفراء الذين أوفدهم سلاطين المغرب إلى القسطنطينية، والذين لا يتعدى عدد الذين كتبوا منهم، أربعة ما بين القرنين السادس عشر والعشرين.[1] أما المؤرخون المغاربة، فقد تميز الخبر عن الدولة العثمانية عندهم بالكثير من الاختزال، إذ انشغلوا بتدوين حوليات السلطان، وارتبط الحديث عن الدولة العثمانية لديهم، بإيراد أخبار تتعلق بتلك الوفادات التي بعث بها الشرفاء السعديون أو العلويون إلى الدولة العثمانية، أو في أحسن الأحوال، الرسائل التي تبادلها السلاطين المغاربة مع السلاطين العثمانيين[2]. وباستثناء ما خصصه أبو القاسم الزياني للدولة العثمانية، بالاعتماد على التواريخ العربية، والروايات الشفوية، في الباب الرابع عشر من كتابه "الترجمان المعرب"، تكاد تغيب الدولة العثمانية في التواريخ المغربية[3].

ومع بداية عهد الاستقلال، لم يهتم المؤرخون المغاربة بدراسة التاريخ العثماني، وانصرف عدد كبير منهم إلى الاهتمام بدراسة التواريخ المحلية. فقد كانت الأسبقية لإعادة بناء التاريخ-الهوية[4]، ولم يعتن العديد منهم بالتطورات التي عرفتها البلاد العثمانية، والتي لا شك أنها كانت أساسية لفهم التطورات التي عرفها المغرب. فمواضيع من قبيل الإصلاح والجيش، والعلاقة مع أوربا، والصحافة، والطباعة، والحدود، والفكر، استحضرت البعد العثماني، الذي لا شك سيساهم في إغنائها وفتح مجالات أرحب في وجهها[5].

إن الحاجة إلى معرفة التاريخ العثماني بالنسبة للباحثين المغاربة تظل على قدر كبير من الأهمية، ولذلك سنحاول في هذه المساهمة العلمية، تقديم أبرز النماذج في مجال البحث التاريخي المتعلق بالدولة العثمانية، ولتتبع تموجاتها سنقسمها إجرائيًا إلى:

١/١-الرعيل الأول:

يتمثل في الدراسات الأكاديمية التي اهتمت بالدولة العثمانية، مع التركيز على القضايا التي تناولتها هذه الاستوغرافية. والظاهر أن هذه الدراسات، تعد بمثابة الركيزة التي تأسست عليها الأبحاث الأكاديمية العثمانية بالمغرب، وذلك راجع لاعتمادها على الأرشيف العثماني بالخصوص، مع توظيفها الكبير لأبرز الدراسات الأجنبية الجادة المتعلقة بالتاريخ العثماني، ونذكر أهمها:

(١/١) ١-"العلاقات المغربية – العثمانية خلال القرن السادس عشر(١٥٤٨-١٦١٧م)"

لعبد الحفيظ الطبايلي، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العُليا في التاريخ، بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس بالرباط، المغرب، (مرقونة)، ١٩٨٩م.

تناول هذا العمل، جوانب من العلاقات السعدية العثمانية خلال القرن السادس عشر الميلادي، وسعى إلى تفكيك أسس هذه العلاقة، وما تمخض عنها من علاقات أخرى مع القوى المتوسطية، وقد رصد المؤلف في البداية، الاستقرار التركي بشمال إفريقيا، مع التركيز على إبراز تاريخ الصراع بين الإمبراطورية العثمانية، وإمبراطورية الهابسبورغ في العالم المتوسطي. وطرح هذا العمل أيضًا، مسألة الزعامة السياسية بشمال إفريقيا؛ حيث اكتسب كل من السعديين والعثمانيين نفوذًا كبيرًا على أساس تبنيهما للجهاد. وقد سعى كل منهما إلى فرض هيمنته على المنطقة؛ فالعثمانيون اعتمدوا في ذلك على "شرعيتهم الإمبراطورية"، المتمثلة في مسألة الخلافة، ومسؤوليتهم في الدفاع عن أرض الإسلام، في المقابل اعتمد السعديون على مشروعية الشرف والانتماء لآل البيت. ونظرًا للاختلاف في منطلقات الدولتين، فقد نتج عن ذلك ما أسماه الباحث بالمواجهة المفتوحة، مما ميز هذه المرحلة بالعديد من

مظاهر العنف والمواجهة العسكرية، الأمر الذي دفع السلطة السعدية، إلى التقوقع داخل حدود البلاد.

(ا/ا) ٢-

Sharifs and Padishahs : Moroccan-ottoman Relations from the 16 th rough the 18 th Centuries», Abderrahmane EL MOUDDEN, Princeton, 1992.

رصد الباحث في هذا العمل، مختلف أوجه العلاقات المغربية العثمانية، منذ القرن السادس عشر الميلادي إلى القرن الثامن عشر الميلادي. متحدثًا في البداية عن شمال إفريقيا، والتطويق الإيبيري خلال القرن الخامس عشر الميلادي وبداية القرن السادس عشر الميلادي، في الوقت الذي ظهرت فيه قوتان جديدتان بالمغارب، هما السعديين والعثمانيين، حيث دخلا في صراع محموم حول الشرعية. وفي الإطار ذاته اعتمد الباحث على عدة رسائل تم تبادلها بين الطرفين[٦]. وقد تخللت هذه العلاقات صدامات عسكرية، مثل تلك التي شهدها النصف الأول من حكم المولى إسماعيل العلوي (١٦٧٢-١٧٢٧)، خفّت حدتها بعقد معاهدات مبكرة حول الحدود. كما أبرز الباحث مظاهر الدعم المتبادل بين العثمانيين والسعديين بالمجال المتوسطي، خصوصًا زمن الأوقات العصيبة، كتلك التي عاشها العثمانيون أثناء حروبهم مع روسيا، أو المواجهات التي خاضها المغرب مع القوى الأجنبية، خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي.

(ا/ا) ٣- "المغرب والباب العالي من منتصف القرن السادس عشر إلى نهاية القرن الثامن عشر" لعبد الرحيم بنحادة، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، زغوان، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م.

حاول الباحث في هذه الدراسة، تتبع العلاقات بين المغرب والباب العالي، في فترة زمنية تمتد ما بين القرنين السادس عشر والثامن عشر الميلادي، وقد أكد على عدة خلاصات من قبيل:

- كون العلاقات المغربية العثمانية ارتبطت بالتطورات الداخلية والدولية؛ فالموقف المغربي من الباب العالي، كانت تمليه الوضعية الداخلية للمغرب. ففترات الأزمة السياسية سواء في العهد السعدي أو العهد العلوي، كانت تفرض تبني سياسات مختلفة عن تلك التي تفرضها فترات الاستقرار؛ فعبد الله الغالب (١٥٥٧-١٥٧٤)، الذي تميز عهده بالاستقرار السياسي، جعله يسلك سياسة مخالفة لتلك التي سلكها زيدان السعدي (١٦٠٣-١٦١٨) ولم تكن أيضًا سياسة المولى إسماعيل في نهاية القرن السابع عشر، ذاتها التي انتهجها ابناه مولاي عبد الله ومولاي عبد الملك خلال أزمة الثلاثين سنة (١٧٢٧- ١٧٥٧م).
- كما لعبت العلاقات الدولية دورًا بارزًا في تحديد الموقف المغربي من الباب العالي؛ ويظهر ذلك من تأكيد الباحث على أن كل السلاطين المغاربة – سعديين وعلويين- وظفوا لعبة التوازنات، بدءا من محمد الشيخ السعدي (١٥١٧-١٥٥٧م)، الذي استغل خوف الإسبان من ضياع وهران، إلى عبد الملك (١٥٧٦-١٥٧٨م)، الذي استخدم الدبلوماسية الفرنسية في تحقيق طموحاته، مرورًا بأحمد المنصور الذهبي (١٥٧٨-١٦٠٣م)، الذي استغل أجواء انعدام الثقة بين العثمانيين والإسبان، وهي ذات السياسة التي سلكها السلاطين العلويين حتى في فترات التقارب مع العثمانيين.

(ا/ا) ٤-"العثمانيون، المؤسسات والاقتصاد والثقافة"، لعبد الرحيم بنحادة، اتصالات سبو، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، ٢٠٠٨.

يعتبر هذا الكتاب، محاولة في التركيب لأهم الدراسات، وما استجد في مجالات البحث في تاريخ الدولة العثمانية خلال العقدين الأخيرين، في محاولة للإجابة على بعض الأسئلة المرتبطة بقضايا التاريخ السياسي والاقتصادي والثقافي للدولة العثمانية. حاول المؤلف في القسم الأول من الكتاب، إعطاء صورة عامة عن مختلف الأشواط التي قطعتها الدولة العثمانية بدءا من تأسيسها، مرورًا بمرحلة الانتقال من الإمارة إلى الدولة، ومرحلة الانتقال من الدولة إلى "الدولة العالمية". أما القسم الثاني فتم تخصيصه للمؤسسات العثمانية؛ بدءا بمؤسسة السلطان باعتباره ركيزة النظام السياسي العثماني[٧]. ولأن الصدر الأعظم يأتي في الدرجة الثانية على رأس هرم السلطة، فقد خصص الباحث للمؤسسة التي يرأسها وهي الديوان، حيزًا هامًا عرض فيه كيفية اشتغال هذه المؤسسة، وصلاحياتها، وتشكيلاتها. كما قدم بيوغرافيات بعض الصدور العظام. وتعرض مؤلف الكتاب للمؤسسة العسكرية، منذ التأسيس إلى نهاية الدولة العثمانية[٨]. وأفرد فقرات للتنظيمات المالية والجبائية للدولة العثمانية.

وفي القسم الثالث، عرض فيه للتطورات الاقتصادية في المجال العثماني؛ بدءا بالفلاحة والصناعة ثم التجارة[٩]. أما القسم الرابع والأخير، فقد رصد فيه الباحث بعض مظاهر الحياة

الثقافية منذ القرن الخامس عشر الميلادي. وخصص حيزًا مهما للكتابة التاريخية والرحلية العثمانية. واهتم هذا العمل أيضًا بالحياة العلمية في العالم العثماني، من خلال التركيز على علوم الرياضيات والهندسة والجغرافيا.

وعلى العموم، فإن موضوع العلاقات المغربية العثمانية ليس بالموضوع الجديد، ولا ندعي أن هذه النماذج التي تناولناها، حازت قصب السبق في الموضوع، بل سبق إلى تناوله باحثون آخرون خلال الفترة الممتدة بين ١٩٠٤م و١٩٩١م، أي طيلة ما يقرب القرن من الزمن[١٠]. ويمكن تصنيف هذه الكتابات إلى:

- كتابات تناولت هذه العلاقات، من زاوية الصراع بين أتراك الجزائر، والدول التي حكمت المغرب، من القرن السادس عشر الميلادي إلى سنة ١٨٣٠، وركزت هذه الكتابات على جوانب التوتر منها، واكتفت بما توفر من وثائق ومراجع[١١].
- وفرت الوثائق التي نشرها هنري دو كاستر (Henri de Castries)، إمكانيات هامة جعلت البحث في موضوع العلاقات المغربية العثمانية يتخذ منحى آخر، حيث أجمعت هذه الوثائق، على أن العثمانيين كانوا يشكلون خطرًا[١٢]. وقد اهتم باحثون آخرون بهذه العلاقات، مركزين على المصادر المغربية التقليدية؛ حيث اهتم بعضهم بالرحلات السفارية إلى المشرق وإستانبول. وبالصورة التي كونها مغاربة الفترتين السعدية والعلوية، عن الحكم العثماني في البلاد العربية[١٣].

ونعتقد أن جل هذه الكتابات الأخيرة، افتقرت في مصادرها إلى وثائق الأرشيف العثماني، الذي كان إضافة نوعية للدراسات التي نحن بصددها، والتي تمكنت من سد الثغرات التي اكتنفت المصادر المغربية التقليدية، وتصحح من خلالها ما ورد في الوثائق الأجنبية الإسبانية والفرنسية خاصة[١٤].

٢/١-الجيل الثاني:

ونقصد به المشتغلين بالأبحاث والدراسات المغربية، التي تناولت الدولة العثمانية بعد الجيل الأول. فقد انشغل أصحابها بعقد مقارنات، لفهم أعمق لبعض التحولات التاريخية بالمغرب، فركزت على مواضيع من قبيل الإصلاح، والجيش، والعلاقة مع أوربا، وأزمة السلطة، واستحضر فيها أصحابها البعد العثماني، الذي لا شك سيساهم في إغنائها وفتح مجالات أرحب في وجهها. ومن هذه الدراسات:

(٢/١) ١-"الجيش الدخيل في الدول الإسلامية، جيش العبيد والإنكشارية العثمانية" لمحمد الحيمر، أطروحة لنيل الدكتوراه، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس بالرباط، المغرب، (مرقونة)، ٢٠٠٠م.

يتمحور موضوع هذا العمل، حول تطور علاقة الجيش الدخيل بالدول الإسلامية؛ نموذج جيش العبيد بالمغرب، والإنكشارية العثمانية. واعتمد صاحب هذا العمل، على المقارنة لإبراز بعض صور الاختلاف والتشابه، بين التجربتين المغربية والعثمانية، وبغية تحديد صور التداخل والتباعد بين تجربتي المغرب والمشرق الإسلاميين العسكرية، وبالتالي تسهيل عملية رصد الخصوصيات العامة لمفهوم الجيش الدخيل. تتبع الباحث صور الاختلاف والتشابه، التي ميزت تاريخ جيش عبيد البخاري في المغرب، وجيش الإنكشارية في الدولة العثمانية. كما أثار جملة من القضايا التي ارتبطت بهذين الجيشين، سواء في إطار علاقتهما بالمحيط، وما تضمنه من رعية وفرق عسكرية أخرى، أو ما ارتبط بالبنية الداخلية لهذين الجيشين، مع إبراز أهم التطورات الاقتصادية، والاجتماعية، التي عرفتها هذه القوة العسكرية الدخيلة في الدولتين العثمانية والمغربية.

(٢/١) ٢-""السياسة الفرنسية تجاه العالم الإسلامي خلال القرنين ١٨ و١٩م، الدولة العثمانية والمغرب نموذجًا" لمحمد العواد، أطروحة لنيل الدكتوراه، بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس بالرباط، المغرب، (مرقونة)، ٢٠١٢م.

لقد حاولنا في هذا العمل، تحليل السياسة الفرنسية من خلال شبكة من العلاقات والأحداث، سواء في المتوسط أو في العالم الإسلامي. وركزنا في البداية على الأوضاع السياسية، والتحولات التاريخية في فرنسا خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلادي، وذلك من خلال الوقوف عند مرجعيات الساسة الفرنسيين قبل الثورة، سواء داخل المعترك الأوربي، أو تجاه العالم الإسلامي، ثم ملامح هذه السياسة، بعد الثورة الفرنسية وكيف صاغت فرنسا سياسة جديدة تجاه العالم الإسلامي، سواء في جزئه الشرقي أو الغربي. كما حاولنا تشخيص الأوضاع الداخلية في الدولة العثمانية والمغرب خلال نفس الفترة؛ وكيف ساهمت هذه الأوضاع بدورها في صياغة السياسة الفرنسية تجاه كل من البلدين. ومن جهة أخرى، تم رصد أولى الملامح "السلمية" للسياسة الفرنسية تجاه كل من الدولة العثمانية والمغرب، وذلك بالحديث عن نهج فرنسا

لسياسة الامتيازات الأجنبية تجاه الدولة العثمانية، وتكريسها لنظام الحمايات القنصلية بالمغرب.

وتُعَدّ سياسة المعاهدات والمؤتمرات الدولية، أهم الآليات التي وظفتها فرنسا لتمرير مشروعها الإمبريالي تجاه البلدين، وقد استغل الساسة الفرنسيون المعاهدات، للضغط على الدولة العثمانية والمغرب خصوصا زمن ضعف البلدين. كما وظفت فرنسا أيضًا، سياسة الإصلاحات تجاه البلدين؛ فعملت إما على فرض إصلاحات على الدولة العثمانية والمغرب، أو إفشال تلك المحاولات الإصلاحية الجادة، التي حاول البلدان إدخالها للحد من خطورة التدخل الأجنبي. ولم تبق فرنسا حبيسة سياسة الإصلاحات، بل لجأت إلى سياسة الحملات والحروب، فكانت سياسة القوة من الأوراق التي لعبها الساسة الفرنسيون، سواء شرق العالم الإسلامي أو غربه.

(٢/١) ٣-""النخبة المثقفة وأزمة السلطة في البلاد الإسلامية بين القرنين ١٦ و١٨م، المغرب والدولة العثمانية نموذجا، دراسة مقارنة" لعبد الحي الخيلي، أطروحة لنيل الدكتوراه، بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس بالرباط، المغرب، (مرقونة)، ٢٠١٢م.

إذا كانت أهم الأعمال الجادة، قد انكبت على دراسة العلاقات العثمانية المغربية، من خلال دراسات معمقة ودقيقة لوثائق الأرشيف العثماني، فإن هذا البحث سعى إلى توسيع وتنويع مجال التخصص، باقتراح مقاربة التاريخ السياسي والاجتماعي المقارن، والتركيز على النخبة المثقفة، واستعراض مشاريع الإصلاح والتحديث المقترحة في زمن مشبع بالأزمات السياسية، ورصد القواسم المشتركة والخصوصيات المميزة. وتستند هذه المقاربة بالأساس، على دراسة متون وأدبيات النخبة المثقفة، بلغاتها الأصلية وأبرزها العثمانية-التركية. لقد تمكن الباحث، بعد استقراء وتحليل مختلف إنتاجات النخبة المثقفة، من تكوين نظرة عن تصوراتها، وقد تبين أن تلك التصورات تطورت وتجددت تبعًا لتجدد الأزمة، وهو ما أثمر مشاريع إصلاحية، وتحديثية مهمة اختلفت زمنيًا بين المغرب والدولة العثمانية. وكانت نظرة رجال النخبة المثقفة للأزمة نظرة دقيقة، حيث حددت مسببات الأزمة الداخلية، في مشاكل الجيش والجباية، وتدخل الحريم في السلطة، وطبيعة التركيبة الاجتماعية، ورصدت مظاهرها في الفساد السياسي والإداري والمالي الذي لحق مختلف مؤسسات البلاد، وكان له انعكاس على دواليب ومصالح الإدارة المركزية والمحلية.

(٢/١) ٤-""الرحلة المغربية والشرق العثماني، محاولة في بناء الصورة" لمصطفى الغاشي، الانتشار العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠١٥م.

تُعَدّ نصوص الرحلة، منبعًا مهمًا من حيث المعطيات الإخبارية والبيوغرافية، والاجتماعية، والاقتصادية، والثقافية والذهنية...، لكون الرحالة كانوا يتنقلون لأغراض متنوعة؛ تتراوح بين الحج والتجارة وطلب العلم والسفارة وغيرها[١٥]. تناول الباحث بالتحليل، الرحلة المغربية نحو الشرق العثماني، مبرزا في مستهل عمله دور العلاقات المغربية العثمانية خلال الفترة الحديثة، في تنقل المغاربة نحو الشرق العثماني ما بين القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلادي. وتوقف عند خصوصيات الرحلة المغربية، من خلال رصد نماذج منها[١٦]. سواء منها الرحلات الحجازية أو السفارية، في نفس الحين، عالج مسألة الطرق وظروف هذه الرحلات. ورصد المؤلف صورة الشرق العثماني[١٧]، من خلال الرحلات المغربية، التي سجل أصحابها عدة انطباعات عن الأحوال السياسية، والإدارية، وعادات المجتمع، والثقافة، والعمران، والآثار. ولم يفت الباحث، عقد مقارنات بين صورة الأتراك العثمانيين في الرحلات المغربية، والرحلات الفرنسية بالشرق.

وخلص إلى أن الرحلات خلال الفترة الحديثة، عرفت حركية مهمة سواء بهدف الحج أو السفارة، الأمر الذي تجلى في التطور الكمي والنوعي للرحلة المغربية، معزيا ذلك إلى عودة الدولة – سواء السعدية أو العلوية-بقوة، وإسهامها في نشر الاستقرار والأمن، الذي كان له بالغ الأثر على الأوضاع الاقتصادية، والاجتماعية والثقافية، وما تلي ذلك من تنشيط لحركية الرحلة إلى الشرق العثماني. حاول هذا الإنتاج الاستوغرافي عمومًا، عقد مقارنات بين المركز والأطراف، متخذا مواضيع إصلاح الجيش، والسياسة الإمبريالية، وأزمة السلطة، والرحلات، كمجال للدراسة والمقارنة. في محاولة جديدة للخروج من نمط العلاقات المغربية/ العثمانية، والانكباب على مواضيع قد تكشف النقاب أكثر، عن علاقات العالم الإسلامي بشقيه الشرقي والغربي بالقوى الأجنبية، وعقد مقارنات لفهم أعمق لبعض الظواهر، سواء في تاريخ الدولة العثمانية أو في تاريخ المغرب. فلا غرابة أن نجد في هذه الأعمال، آخر مستجدات البحث في مجال الدراسات العثمانية، الأمر الذي يعتبر إضافة نوعية في هذا الميدان، ولبنة جديدة في الإسهام المغاربي المتميز في الدراسات العثمانية.

ثانيًا: مناهل البحث في النماذج السابقة

تنوعت المادة المصدرية التي اعتمدتها الأعمال السابقة بين الأرشيف العثماني، والدراسات الأجنبية.

١/٢-الأرشيف العثماني:[١٨]

كُتب تاريخ العلاقات المغربية العثمانية، ولفترة طويلة بالاعتماد على صنفين من الوثائق[١٩]، غير أن الصورة التي قدمتها الدراسات المنجزة، حول العلاقات المغربية العثمانية، تظل غير تامة طالما لم تعد إلى الأرشيف العثماني، الأمر الذي يمنح تلك النماذج من الدراسات السابقة أصالتها وجدتها. لقد سمح الأرشيف العثماني، بملء العديد من الثغرات، وبتجاوز الضعف الذي تميزت به المصادر المغربية بخصوص موضوع العلاقات العثمانية المغربية، كما سمح أيضًا، بتتبع وتعقب تباين مواقف الإدارة المركزية العثمانية من الحكم في المغرب، إضافة إلى الاطلاع على الصدى الذي كان لبعض أحداث المغرب في العاصمة العثمانية. تُصنف الوثائق المتعلقة بالمغرب، في أرشيف رئاسة الوزراء (Başbakanlık Arşivi) بإستانبول إلى:

(أ/٢) ١-الأحكام الموجهة إلى باشاوات الجزائر:

وتغطي معظم هذه الأحكام فترة قوة الدولة العثمانية، خصوصا في غرب البحر الأبيض المتوسط، وتوجد هذه الأحكام بالدفاتر المهمة[٢٠]، كما تبرز موقف الإدارة المركزية من الدولة السعدية.

(أ/٢) ٢-المراسلات السلطانية:

هذه المراسلات موزعة على عدد من التصانيف، لكن يقع أهم جزء منها، ضمن ما يسمى بدفاتر نامهء همايون[٢١] Name (I Humayun Defterleri). وتضم عدة رسائل بعث بها سلاطين المغرب إلى الباب العالي، ورسائل أرسلها السلاطين العثمانيين لنظرائهم المغاربة.

(أ/٢) ٣-التقارير المرفوعة إلى الصدر الأعظم والسلطان:

تهم هذه الوثائق، العلاقات المغربية العثمانية خلال القرن الثامن عشر، خاصة على عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله (١٧٥٧-١٧٩٠م)، وتضم العديد من المعلومات ذات الصلة بالسفارات المغربية، التي توافدت على إستانبول.

(أ/٢) ٤-التقارير الواردة من السفارات العثمانية في أوربا:

تتمحور هذه التقارير حول مواضيع مختلفة، مثل الوضع الداخلي للمغرب، مع التركيز على علاقات المغرب بالقوى الأوربية، سعيا من الدولة العثمانية إلى إيجاد موطئ قدم لها في إدارة الصراع حول المنطقة. وعلى الرغم من بعض الصعوبات التي يطرحا الاشتغال على الأرشيف العثماني، فهناك تأكيد قوي من قِبل الباحثين المغاربة الذين اهتموا بدراسة الدولة العثمانية، على أهمية الأرشيفات العثمانية في دراسة العلاقات المغربية العثمانية، وتكمن هذه الأهمية في مستويين:

الأول: على مستوى المعلومات؛ حيث مكنت هذه الأرشيفات، من تجاوز الضعف والهزال الحاصل في المصادر المغربية، وإجحاف الوثائق الأجنبية. كما يسعف هذا الأرشيف، في الكشف على مجموعة من المواقف التي اتخذتها الإدارة العثمانية تجاه كثير من الأحداث، كما مكنت أيضًا من الكشف عن مراسلات ظلت إلى عهد قريب، مجهولة لدى المؤرخين المغاربة أو الباحثين، الذين درسوا العلاقات المغربية العثمانية.

الثاني: يتعلق باللغة السياسية في الوثائق العثمانية؛ فقد مكنت هذه الوثائق، من الوقوف عند اللغة التي كان يستعملها المسؤولون العثمانيون في مخاطبة الملوك المغاربة – سعديين أو علويين-، وقد لاحظ عبد الرحيم بنحادة، بأن الإدارة العثمانية كانت تستعمل الألقاب نفسها، التي كانت تخاطب بها شريف مكة في القرن السادس عشر الميلادي[٢٢].

٢/٢-الدراسات الأجنبية:

اعتمد الباحثون المغاربة في الأعمال التي أنجزوها، على أهم الدراسات الأجنبية التي تعنى بالدولة العثمانية، ومن بين هذه الدراسات؛ العمل الذي أنجزه جوزيف فون هامر (Von Joseph Hammer) "تاريخ الإمبراطورية العثمانية من البدايات إلى أيامنا"[٢٣]، وقد أعطى بعمله هذا، بعدا عميقا للتاريخ العثماني من خلال اعتماده المصادر العثمانية لأول مرة. وظل هذا العمل لمدة طويلة، مرجع المؤرخين الأوربيين في مقاربة التاريخ العثماني. وهناك الكتاب الذي أنجزه ستانفورد شاو (Stanford Shaw) [٢٤] الذي يضم جزأين، ويتضمن أهم الخلاصات التي توصل إليها الباحثون، بعد مرور أكثر من عقدين على فتح الأرشيف العثماني. يعتبر هذا العمل إنجازا هاما في مجال كتابة تاريخ الدولة العثمانية، لكونه ينبني على تحليل المعطيات التاريخية، ورصد نتائج الأبحاث المستجدة. ومن الأعمال أيضًا؛ العمل الذي كان من تنسيق روبير منتران (Robert Mantran)[٢٥]، الذي اهتم بتاريخ النظام الداخلي للدولة العثمانية، وقد انخرط جل المشاركين في هذا العمل الجماعي، في تصحيح عدد من الأخطاء الشائعة عند المؤرخين بخصوص الدولة العثمانية.

كما اعتمد الباحثون المغاربة، على الأعمال التي كتبها الأتراك، خصوصًا بعدما عاد الاهتمام بالتاريخ العثماني إلى الواجهة، في نهاية الأربعينيات من القرن الماضي[٢٦]. ومن هذه الكتابات التركية؛ ما ألفه إسماعيل حقي أوزون جارشلى (Uzuncarsili Ismail Hakki)، وأنور ضياء قارال (Enver Ziya Karal، التاريخ العثماني (Osmanli Tarihi) [٢٧]. وكان الهم الأكبر عند هؤلاء، هو إعادة كتابة التاريخ العثماني، بالاعتماد على النصوص التاريخية الأصلية. ومن الأعمال التي أنجزها الباحثون الأتراك، عمل خليل إنالجيك (Halil Inalcik)، "تاريخ الدولة العثمانية: العصور الكلاسيكية"[٢٨]، وهو عمل موجه بالأساس إلى غير الناطقين باللغة التركية، وقد ركز المؤلف في هذا الكتاب، على التطورات التي عرفتها الدولة العثمانية، منذ النشأة إلى نهاية القرن السادس عشر الميلادي، وكانت غايته إعطاء أهمية كبيرة للدولة والمؤسسات.

إضافة إلى الدراسات السابقة، هناك أيضًا، عمل كل من يحيا ضاهيرو(Yahia Dahiru)[٢٩] وأندرو هيس (Andrew Hess) [٣٠]. فقد تتبع الأول العلاقات الخارجية المغربية في النصف الثاني من القرن السادس عشر الميلادي، مؤكدًا على دور العوامل الجغرافية والإيديولوجية في هذه العلاقات، وخصص المؤلف حيزا مهما لمعالجة العلاقات المغربية-العثمانية، بحكم تأثر هذه الأخيرة بتلك العلاقات التي ربطها السعديون مع الخارج.

أما أندرو هيس، فقد اهتم بتطور الحدود الإيبيرية الإفريقية خلال القرن السادس عشر الميلادي، كمفهوم سياسي واجتماعي وثقافي، وناقش ذلك بعمق اعتمادًا على وثائق عثمانية وإسبانية. كما أبرز تطور العلاقات بين إمبراطورتي القرن السادس عشر الميلادي؛ العثمانية المسلمة، والإسبانية المسيحية، سواء خلال مرحلة الصراعات والصدامات العسكرية، أو إبان مرحلة فك الارتباط بينهما في أواخر القرن السادس عشر الميلادي، ومن ثَمَّ تناول أهمية شمال إفريقيا في ذلك الصراع، وانعكاس ذلك على تحولات المجال المتوسطي. عمومًا فإن الأعمال الأجنبية، التي اعتمدها الإنتاج الاستوغرافي المغربي حول الدولة العثمانية، عديدة ومتنوعة[٣١]، لا يسعنا المجال للوقوف عند جلها، غير أنها تبقى ذات أهمية بالغة في كتابة تاريخ الدولة العثمانية، وملامسة كل جوانب هذا التاريخ، سواء المتعلق بمركز الدولة العثمانية أو بأطرافها.

خَاتِمَةٌ

إن الإنتاج الاستوغرافي المغربي، الذي قدمنا لنماذج منه، اعتمد في جله على الأرشيف العثماني وعلى الدراسات الأجنبية، وما استجد في عالم البحث في تاريخ الدولة العثمانية في العقدين الأخيرين. ويندرج هذا الإنتاج، ضمن محاولة للإجابة على بعض الأسئلة المرتبطة بقضايا التاريخ العثماني السياسي، والاقتصادي، والثقافي، للدولة العثمانية. ويعتبر هذا الإنتاج أيضًا، محاولة لمد المؤرخين ببعض عناصر المقارنة بين المجالات المغاربية العربية والدولة العثمانية. وكذا الإسهام في تخصص الدراسات العثمانية، الذي نشأ بالجامعة المغربية – جامعة محمد الخامس بالرباط أنموذجًا-أواخر التسعينيات، حيث تأسست وحدات للتكوين والبحث تهتم بالدراسات العثمانية وتهدف إلى دعم وتشجيع البحث العلمي والأكاديمي حول تاريخ المغرب وعلاقاته بالولايات المغاربية وبالباب العالي خلال العهد العثماني. وقد سجلت الجامعة المغربية نشاطا علميا وأكاديميا ملحوظا في هذا التخصص، تجلى في تكوين وتأطير الطلبة الباحثين في سلكي الماستر والدكتوراه، والاشتغال على أبحاث ودراسات علمية وأكاديمية لها صلة بتخصص الدراسات العثمانية، وعقد مجموعة من الندوات والمؤتمرات الوطنية والدولية حول الدراسات العثمانية والمغاربية. إضافة إلى عقد شراكات مع مراكز الأبحاث والمؤسسات الوطنية والدولية التي تهتم بالدراسات التركية-العثمانية.

الهَوامِشُ:

(١) هؤلاء السفراء هم:- محمد التمكروتي، **النفحة المسكية في السفارة التركية**، تحقيق عبد اللطيف الشادلي، المطبعة الملكية، ٢٠٠٢.- عبد العزيز الثعالبي، **كتاب ورد من إستانبول في التعريف بملوكها وذكر أوصافها وما فيها من العمارة والبساتين**، مخ.خ.ع، تحت رقم: ١٦٣.- ابن عثمان المكناسي، **إحراز المعلى والرقيب في حج بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والخليل والتبرك بقبر الحبيب**، أطروحة لنيل الدكتوراه في التاريخ، كلية الآداب تطوان، ٢٠٠١، نشرت هذه الرحلة من طرف دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، الإمارات العربية والمؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠٠٣.- أبي القاسم الزياني، **الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برًا وبحرًا**، تحقيق عبد الكريم الفيلالي، ط٢، الرباط، ١٩٩١.

(٢) عبد الرحيم بنحادة، **العثمانيون المؤسسات والاقتصاد والثقافة**، اتصالات سبو، ط١، الدار البيضاء، ٢٠٠٨، ص ٩. من بين هؤلاء المؤرخين نذكر:- الضعيف الرباطي، **تاريخ الضعيف الرباطي**، تحقيق محمد البوزيدي الشيخي، دار الثقافة، الدار البيضاء، ٢ ج، ١٩٨٨.- محمد بن الطيب القادري، **نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني**، تحقيق محمد حجي وأحمد التوفيق، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، ٤ج، ١٩٧٧/١٩٨٦.- أحمد ابن خالد الناصري، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٥٦.

(٣) عبد الرحيم بنحادة، **مرجع سابق**، ص ٩. يُنظر: أبو القاسم الزياني، **الترجمان المعرب عن دول المشرق والمغرب**، تحقيق محمد غسان عبيد، رسالة لنيل د.د.ع، الرباط، (مرقونة)، ١٩٩٣-١٩٩٤.

(٤) عبد الرحيم بنحادة، **مرجع سابق**، ص ١٠.

(٥) **نفسه**، ص ١٠.

(٦) رسالة والي العثمانيين بالجزائر عثمان باشا إلى المولى محمد بن الشريف سنة ١٦٥٥، وجواب محمد بن الشريف على هذه الرسالة. ورسالة السلطان العثماني مصطفى الثاني إلى المولى إسماعيل سنة ١٦٩٧. يُنظر:

Abderrahmane El Moudden, **Sharifs and Padishahs...**, pp.160-166.

(٧) للتوسع فيما يخص مؤسسة السلطان يُنظر: فريدون بك، **منشئات السلاطين**، جزآن، إستانبول، ١٨٨٥.

(٨) بخصوص الجيش العثماني يُنظر:

-Halil Inalcik, «Military and fiscal transformation», in **Studies in Ottoman social and economic history**, pp.283-337.

(٩) فيما يتعلق بالمجال الاقتصادي بالدولة العثمانية يُنظر:

-Halil Inalcik, Quataert Donald, **An Economic and Social History of the Ottoman Empire 1300-1914**, Cambridge University Press, 1994.

(١٠) يُنظر، عبد الرحيم بنحادة، **المغرب والباب العالي: من منتصف القرن السادس عشر إلى نهاية القرن الثامن عشر**، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات زغوان، ١٩٩٨، ص ١٠.

(١١) نشير هنا إلى عمل:

- August Cour, **L'établissement des dynasties des Chérifs et leurs Rivalités avec les turcs de la Régence d'Alger (1509-1830)**, Ernest Leroux, Paris, 1904

يُنظر: عبد الرحيم بنحادة، مرجع سابق، ص ١٠.

(١٢) تتضمن سلسلة المصادر الأصلية لتاريخ المغرب وثائق هامة تفيد في معرفة جانب من العلاقات المغربية العثمانية. يُنظر:

Henri de Castries, **Les Sources inédites de L'histoire du Maroc (S.I.H.M)**, Paris, 1905-1948.

عبد الرحيم بنحادة، **المغرب والباب العالي**...، ص ١٠.

(١٣) يتعلق الأمر بمجموعة من الأبحاث التي أنجزها باحثون مغاربة منهم أعمال محمد حجي، **"العلاقات المغربية التركية في القرن السادس عشر"**، مجلة المناهل، عدد ٢٥، ١٩٨٣، ص٧- ٢٢.

(١٤) فتح الأرشيف العثماني في وجه الباحثين مع نهاية السبعينيات، فأنجز باحثون أجانب ومغاربة دراسات اعتمدت وثائق الأرشيف العثماني. يُنظر: عبد الرحيم بنحادة، مرجع سابق.

(١٥) تعددت الرحلات المغربية خلال الفترة الحديثة وحتى المعاصرة، والتي اختلفت الأغراض من ورائها، ومن الأمثلة عن هذه الرحلات: رحلة أبي سالم العياشي، ورحلة الغيغائي، ورحلة أحمد الصبيحي، ثم رحلة التمكروتي وأبو القاسم الزياني...

(١٦) من بين الرحلات التي درسها الباحث: رحلة أبي سالم العياشي، ومحمد المرابط الدلائي، والرافعي التطواني، وأبو القاسم الزياني، وابن عثمان المكناسي.

(١٧) قسم الباحث الشرق العثماني في هذه الدراسة، إلى المجالات التالية: الحجاز والديار المصرية والقسطنطينية أو إسطنبول، ثم الشام وفلسطين.

(١٨) سنعتمد في تحليل هذه النقطة، على خلاصة الأعمال التي أنجزها عبد الرحيم بنحادة حول الأرشيف العثماني. يُنظر: عبد الرحيم بنحادة، **"مساهمة الأرشيف العثماني في كتابة تاريخ العلاقات المغربية – العثمانية ق ١٦-١٩م"**، ضمن، **المغارب في العهد العثماني**، سلسلة ندوات ومناظرات رقم ٤١، ١٩٩٥، ص١١-٢٤.- عبد الرحيم بنحادة، **المغرب والباب العالي من منتصف القرن السادس عشر إلى نهاية القرن الثامن عشر**، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، زغوان، تونس، ١٩٩٥.

(١٩) الوثائق المحفوظة عند المؤرخين المغاربة القدامى أمثال الإفراني والناصري وإبن الحاج وإبن زيدان. والوثائق الأجنبية وهي في الغالب عبارة عن تقارير ومذكرات،

حررها سفراء وتجار أجانب لرصد التحركات العثمانية بشمال إفريقيا. يُنظر عبد الرحيم بنحادة، "**مساهمة الأرشيف العثماني**..."، ص١١.

(٢٠) الدفاتر المهمة هي عبارة عن دفاتر جمعت فيها الأحكام الموجهة إلى مختلف الولايات التابعة للدولة العثمانية، وفي بعض الأحيان نصوص رسائل موجهة إلى ملوك الأمم الأخرى. ويبلغ عددها ٢٦٧ دفترا. عبد الرحيم بنحادة، "**مساهمة الأرشيف**..."، ص ١٣.

(٢١) دفاتر نامهء همايون هو نوع من الدفاتر جمعت فيه الرسائل السلطانية، والمعاهدات، والاتفاقيات التي أبرمتها الدولة العثمانية مع البلدان الأجنبية. أما عدد هذه الدفاتر فهو ١٧ دفترا، خصص الدفتر الأخير منها لجمع مراسلات الصدور العظام. عبد الرحيم بنحادة، "**مساهمة الأرشيف**..."، ص ١٣.

(٢٢) يُنظر: عبد الرحيم بنحادة، **المغرب والباب العالي**...، ص ٢٠٧-٢٠٨.

(23) Von Joseph Hammer, **Histoire de L'empire Ottoman Depuis son Origine Jusqu'a à nos Jours**, Traduit de L'allemand par J. Hellert, Paris, 1923, 18 Volumes.

(24) Shaw Stanford, **Between Old and New : The Ottoman Empire Under Sultan Selim III, (1789-1807)**, Harvard, 1971.

(25) Rebert Mantran, **Histoire de L'empire Ottoman**, Fayard, 1989.

(٢٦) تركز الاهتمام في المؤسسات العلمية التركية في بداية عهد الجمهورية على التاريخ القديم، وجرى البحث عما يعزز الهوية التركية العلمانية. يُنظر: عبد الرحيم بنحادة، **العثمانيون المؤسسات والاقتصاد والثقافة**...، ص ١٣.

(27) Uzuncarsili Ismail Hakki et Enver Ziya Karal, **Osmanli Tarihi,** Ankara, 1970.

(28) Halil Inalcik, **Ottoman Empire: Classical Age 1300-1600**, London, 1972.

(29) Yahia Dahiru, **Morocco in Sixteenth Century : Problems and Paterns in African Foreign policy**, Humanities Press, 1981.

(30) Andrew Hess, **The Forgotten Frontier, A History of the Sixteenth Century Ibero- African frontier**, Chicago, 1978.

(٣١) إن الدراسات الأجنبية التي اهتمت بالدولة العثمانية عديدة والتي نهل منها الباحثون المغاربة نذكر منها على سبيل المثال:

- Frederic Hitzel, **L'Empire Ottoman XV-XVIII,** les Belles Lettres, 2001. - Bernard Lewis, **Islam et laïcité, La renaissance de la Turquie moderne**, Paris, Fayard, 1989.- Robert Mantran, **Istanbul dans la Moitié du XVII siècle, Essaie d'histoire Institutionnelle, Economique et Sociale**, Paris, 1962.- André Raymond, **Les grandes Villes Arabes à l'époque Ottomane**, Sindibad, Paris, 1985.- Lucette Valensi, **Venise et la Sublime Porte, la naissance du Despote**, Hachette, 1987.